﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النّحل: 49]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين ذِكْر خضوع بعض المخلوقات، وبين سجود جميع الكائنات، تعميمًا بعد تخصيص

بعد أن بيّنتِ الآية السّابقة خضوعَ المخلوقاتِ الّتي تطلُع عليها الشّمس على هذه الأرض، وسجودَ ظِلالِها لله ﷻ، تُبيِّن هذه الآيةُ أنّ المخلوقات الّتي تسجد لله، ليست هذه المخلوقاتُ الأرضّية المذكورة فقط، بل كلّ ما في السَّماوات والأرض، بما في ذلك الدَّوابُّ والملائكة[1]، فهو استكمالٌ لما قرَّرَتْهُ الآيةُ السّابقة، مِن سجود ظِلال الأشياء لله، وأنَّها ليست وحدَها هي الّتي تسجد لله سُبحانه، بل كلُّ ما في السَّماوات وما في الأرض[2].

وكذلك لمّا ذَكَرَ في الآية السّابقة السُّجودَ القسريّ، ذكرَ بعدَه هُنا سجودًا آخر، بعضُه اختيارٌ، وفي بعضه شِبهُ اختيارٍ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةٍ﴾: أصْلُ (دَبَّ): حَرَكَةٌ على الأرْضِ، أخَفُّ مِنَ المَشْي. تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللّهُ يُسَمَّى دابّة، والاسمُ العامُّ: الدّابَّةُ لِما يُرْكَبُ، وتصغيرها دوَيْبة[4]، ويُقالُ: ناقَةٌ دَبوبٌ، إذا كانَتْ لا تَمشِي مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ إلّا دَبيبًا[5]، ودَبَّ النَّمل يَدُبُّ دَبيبًا، أي: مَشَى على هِينته، ودبَّ القَوْم إلى العَدوّ دبيبًا، أي: مَشَوْا على هِينتهم لم يسرعوا[6]، والدَّبيبُ: الزَّحف على الوَجْه[7]، وكلّ ماشٍ على الأرض

(1) القدوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 99.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 305.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبَّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دبَّ).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (دب).
(7) الجوهريّ، تهذيب اللُّغة: (دب).

دابّة ودَبيب، وقولهم: (أكذب مَن دَبّ ودَرَج)، أي: أكذب الأحياء والأموات، ودَبّ الشّيخُ، أي: مشى مشيًا رويدًا[1]، والمقصود بـ (دابّةٍ) في الآية: بَيانٌ لِما في الأرْض، إذِ الدّابَّةُ ما يَدِبُّ على الأرْض[2].

2) ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أصْلُ الكِبْر: الامتِناعُ وعَدَمُ الانْقِياد، يُقال: تَكَبَّرَ البَعِيرُ: إذا امتَنَعَ ولم يَنْقَدْ[3]، والكِبْرُ: التَّعاظُمُ، يُقال: كَبُرَ، يَكْبُرُ، كِبَرًا، أي: عَظُمَ، ويُقال له أيضًا: التَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ، وضِدُّهُ: التَّواضُعُ والتَّصاغُرُ، والمُتَكَبِّرُ: المُتَعالي والمُتَعاظِمُ، والكِبْرُ أيضًا: مُعْظَمُ الشَّيْءِ، ويأْتي الكِبَرُ بِمعنى: التَّعالي والتَّرَفُّع، فيُقال: كَبُرَ وتَكَبَّرَ عنِ الشَّيْءِ: إذا تَرَفَّعَ وتَنَزَّهَ عنه[4]، واستكبرَ الرَّجلُ: تكبَّر، وعاند، وتجبَّر، وتعاظم، وامتنع عن قبول الحَقّ وتمرَّد، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34][5]، والمقصود بالكِبْرِ في الآية: إظهارُ المَرْءِ التَّعاظُمَ على غَيرِهِ؛ لأنَّهُ يَعُدُّ نَفْسَهُ عَظِيمًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخضوعُ الكونيُّ لله تعالى مُطلَقٌ في الوجود، والتَّسبيح بحمده لا يَنِدّ عنه موجود

الآيةُ الكريمة استكمالٌ لما قرَّرتْهُ الآيةُ السّابقة، مِن سجود ظِلال الأشياء للّه، وأنَّها ليست وحدَها هي الّتي تسجد للّه سبحانه، بل كلُّ ما في السَّماوات وما في الأرض، فيقول الحَقُّ تعالى: وللّه وحدَه يسجُدُ جميعُ ما في السَّماوات، وجميعُ ما في الأرض، مِن كلِّ ما يَدِبُّ ويتحَرَّكُ، سجودَ ذُلٍّ وخُضوعٍ، فكُلُّ أحدٍ خاضِعٌ لربوبيَّته، ذَليلٌ لعزَّته، مقهورٌ تحتَ سلطانه، وكذلك ملائكتُه الَّذين في السَّماء، وهم لا يستكبرون عنِ التَّذلُّل والخُضوع له، وفي هذا قطعٌ لكلِّ حُجَّة للإنسان، ألّا يكون في السّاجدين للّه، فإذا عَدَّ نفسَه مِن عالم

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (دبب).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (كبر).

الأرض، فهذه دَوابُّ الله كلُّها تسجد لله، فلْيَسجُد معها، وإذا كان يرى أنَّه فوقَ هذه الدَّواب، فهذه مخلوقات السَّماء، وهذه الملائكة أشرفُ مخلوقاتِها وأكرمها عند الله، قد سجدت لله في ولاء وخشوع، فلْيَسجُدْ لله كما سجدتِ الملائكةُ، أو كما سجدتِ الدَّوابّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة وصل جملة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ بسابقتها:

جمعُ الحشدِ الكونيّ في مشهد مهيب، يُظهِر خضوعَ الكائناتِ للرّبّ القريب

لمّا بَيَّن النَّظمُ الكريم ما بَيَّنَ مِن سجود الظِّلال وذَويها مِنَ الأجرام السُّفليَّة الثّابتة في أحيازها ودُخورِها له سبحانَه، أتبَعَهُ ببيان سُجودِ المخلوقات المتحرِّكة بالإرادة، سواء كانت لها ظلال أم لا، فأردفه بما يُفيدُه تأكيدًا مع زيادة سجود ما لا ظِلَّ له[2]، وبهذا الوصل يُضيف إلى الحَشْد الكَونيِّ الملائكةَ، فإذا مَشْهَدٌ عجيبٌ مِنَ الأشياء والظِّلال والدَّواب، ومعهم الملائكةُ في مقامِ خشوعٍ وخضوعٍ وعبادةٍ وسجود.

بلاغة القصر، بتقديم الجارِّ والمجرور:

إثباتُ خضوعِ الكائناتِ لله وحدَه، استقلالًا أوِ اشتراكًا

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: سجد لله لا لغيره ما في السّماوات وما في الأرض[3]، وبنظرة فاحصة متأنِّية إلى هذه الآية الكريمة، نجد أنَّها اشتملت على أسلوب مِنَ البلاغة راقٍ، ولونٍ مِنَ الفصاحة عالٍ، وهو أسلوب القصر المُستفاد مِن تقديم الجارِّ والمجرور حيثُ قَصَرَتِ الآيةُ الكريمةُ السُّجودَ لله تعالى، لا إلى غيره، فله تعالى وحدَه يخضع وينقاد لا لشيءٍ غيرِه، استقلالًا أو اشتراكًا، والقَصْر ينتظمُ القلبَ والإفراد، إلّا أنّ الأنسب بحال المخاطبين قصرُ الإفراد؛ لأنَّ المُخاطَب يشارك الغيرَ في الحُكم المقصور عليه، كما يُؤذِن به

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 245، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 200، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 90، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 305.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 395.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.

قولُه تعالى: ﴿*وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النّحل: 51][1]، وفي حصر السُّجود على الله وحْدَه تعريضٌ بالمشركين الّذين يُشركون مع الله ﷻ، إذ يسجدون للأصنام[2]، وأنّ المخلوقات السّاجدة لله في السَّماوات والأرض، هي خيرٌ مِنَ المشركين، فهم دون كُلِّ هذه الأشياء[3].

دلالة الفعل المضارع:

الـدَّلالـة على أنَّـه حاصل منهما، على سبيل التَّجدُّد والاستِمرار

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾، السُّجود على نوعين: سجودٌ هو عبادة، كسجود المسلمين لله تعالى، وسُجودٌ هو عبارة عنِ الانقياد لله تعالى والخضوعِ له، ففي حَقِّ الدّابة: يكون بمعنى التَّواضعِ والخُضوع، وفي حَقِّ الملائكة: يكون بمعنى سجودِ العبادة لله تعالى[4]، وقد عبَّر النَّظمُ الكريم على هذا الفعل بصيغة المضارع؛ للدّلالة على أنَّه حاصل منهما على سبيل التَّجدّد والاستِمرار، كيف لا؟ وهي مخلوقات طائعةٌ غيرُ عاصية، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: 20]، فهم دائبون في العمل ليلًا ونهارًا، مُطيعون قصدًا وعَمَلًا، قادرون عليه[5].

دلالة التَّعبير بالسُّجود، بين الحقيقة والمجاز:

بـيـانُ أنَّ السُّجـودَيـن يجـمـعُـهـمـا معنى الانقيادِ والخـضـوع لله ربِّ العالمين

أصل السُّجودِ الانحناءُ والتَّذلُّل، وهو للإنسان والحيوان والنَّبات والجمادات، وهو نوعان: سُجود تسخير، وسجود اختيار.

فسجودُ التَّسخيرِ: هو سجودُ كلِّ ما خلقه اللهُ، وهذا نحو قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [الرَّحمن: 6]، وسجود اختيار: نحو سجودِ المُسلمين لله ﷻ، باختيارهم وإرادتهم.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 395.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(3) القدّوميّ، التَّفسير البياني، ص: 99.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 216.
(5) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 5/ 336.

والمقصودُ بالسُّجود في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، هو سجود اختيارٍ وسجودُ تسخيرٍ؛ لأنَّ البشر يدخلون ضمن معنى: ﴿دَآبَّةٍ﴾، ولذا فمنهم مَن يسجد لله اختيارًا، لكون الآيةِ آيةَ سَجدةٍ، لا بُدَّ مِن دلالتها على السُّجود المُتعارَف ولو ضِمنًا[1].

فاشتملت هذه الآية الكريمة على أحد المَعنيين مجازًا في لفظ السُّجود، على معنى الانقياد والخضوع، بعلاقة اللُّزوم، إذ كان المُراد مِنَ السُّجود لازمَه، وهو الانقياد، ويكون التَّعبير مِن قبيل المَجاز المُرسل، حيثُ أطلقَ السُّجودَ وأراد لازمَه، وفي هذا التَّجوُّزِ ما يُضْفي على اللَّفظ كثرةَ المعاني، فإنَّ معنى سجودِ الدَّوابِ لله، أنَّ الله جعل في تفكيرها الإلهاميّ التذاذَها بوجودها، وبما هي فيه مِنَ المَرح والأكل والشُّرب، وتَطَلُّبِ الدَّفعِ عن نفسها مِنَ المُتغَلِّب ومِنَ العوارض، بالمُدافعة أو بالتَّوقّي، ونحوِ ذلك مِنَ الملائمات، فحالُها بذلك كحالِ نَفْسٍ شاكر، تتيّسرُ تلك الملائماتُ لها، وإنَّما تيسيرُها لها ممَّن فطَرَها، وقد تصحب أحوالَ تَنَعُّمِها حركاتٌ تُشبه إيماءَ الشّاكرِ المُقارِب للسُّجود، ولعلَّ مِن حركاتها ما لا يَشْعُر بهِ النّاسُ؛ لخفائه وجَهْلِهم بأوقاته، فإطلاقُ السَّجود على هذا مجازٌ[2].

وقد يُراد بالسُّجود حقيقتَه، كما يُقال في تسبيح ما لا يعقل، ويكون منشأ ذلك معنًى يخلقه الله فيه، كما أفهمَ السماوات والأرض والجبال خطابَهُ، حيث عَرَضَ عليها الأمانة فأبَتْ[3]، وكخطابِه إليهما وطاعتهما واستجابتهما له في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصّلت: 11].

السِّرُّ وراءَ استعمالِ الاسمِ الموصول ﴿مَا﴾ الّتي لغير العاقل:

جاء التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ الّتي تُستَخدم لغير العاقل، في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّها تُستَخدم للعاقل أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: 3]، وكما في قوله تعالى: ﴿*وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: 53]، وتكون (ما) للعاقل، إذا اشتركَ العاقلُ وغيرُ العاقلِ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 395، والقدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 99.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 170.
(3) الرَّسعني، رموز الكنوز: 4/ 37.

إذا اشترك العاقلُ وغيرُ العاقلِ في حُكمٍ واحد، استُعمِلت (ما) للعاقل

حُكم واحد، كما في هذه الآيةِ مَحلّ الدِّراسةِ، فقد اشتركَ العاقلُ وغيرُ العاقلِ، في حُكم السُّجودِ للّه[1]، فجِيء بما هو صالحٌ للعُقلاء وغيرِهم، إرادةَ العموم[2].

وقد يكون إيثارُ ﴿مَا﴾ الموصولة دونَ (مَنْ)، تغليبًا لكثرة غيرِ العُقلاء[3]، فلو جِيءَ بـ (مَن) لم يكن فيه دليلٌ على التَّغليب، فكان مُتناوِلًا للعُقلاء خاصَّة، فجِيءَ بما هو صالحٌ للعُقلاء وغيرِهم، إرادةَ العموم[4].

تقديمُ ذِكْرِ السَّماواتِ على الأرض:

بيانُ مكانةِ السَّماواتِ وأهميّتِها وعَظَمَتِها

تقدَّم ذِكْرُ السَّماواتِ على الأرضِ جَريًا على عادة القرآن الكريم؛ فإنَّ القرآن قَدَّم ذِكْرَ السَّماواتِ على الأرض بما يَزيد عن مِئَةِ آية، ولم يتأخَّر ذِكْرُها إلّا في آيتين لموجِبٍ دلاليّ، وهما في سورة [إبراهيم: 48] و[طه: 4]، وقُدّمت أيضًا مِن باب تقديمِ الأعظم والأعلى، فالشّأن أن يتقدّم ذِكر الأعظم والأعلى مكانًا على غيره، وما في السّماوات أكثرُ ممّا في الأرض، فقُدِّم ذِكْر السّماواتِ وما فيهنّ، مِن باب التّدرُّجِ مِنَ الأعلى للأدنى[5]، والتّقديمُ أيضًا للأهميّة والقَداسَة، فالسَّماءُ فيها العَرشُ والكُرسيّ، والأرواحُ تَصْعَدُ إليها، وفيها الجنّةُ والمَلأ الأعلى، وسِوى ذلك مِنَ الغَيبيّات.

دلالةُ تكرار الاسم الموصول (ما):

المبالغةُ في إثبات الحُكم على الطّائع والعاصي

لما كان المقامُ للمبالغة في إثبات الحُكم على الطّائع والعاصي، أعاد الموصولَ، فقال تعالى: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[6]؛ ليكونَ (ما في الأرض) معطوفًا على (ما في السّماء) في الحُكم الّذي ذَكَره السّياق، وهو السّجودُ لربّ الوجود، والمعنى: وللّه يسجد ما في السّماوات، وما

(1) القدّوميّ، التّفسير البياني، ص: 99.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 609.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 170.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 609.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 513، والقدّومي، التّفسير البياني، ص: 99.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 174.

في الأرض مِنَ المخلوقات، بحيثُ أنّها تخضعُ وتستسلم لأمر الله، ولا يَندّ منها عنِ الخضوع طوعًا أو كَرهًا أحدٌ، مِنَ الطّائعين الخاضعين، ولا مِنَ العُصاة المُنكرين.

دلالةُ حرفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾ قبلَ لفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾:

بيانُ استغراقِ الحرفِ لِكُلِّ ما يَدِبُّ على وجه الأرض

قولُه تعالى: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: كلِّ دابَّة في الأرض، فإنَّها تسجُد لله، و﴿مِن﴾ هذه هي الاستغراقيَّةُ، وهي مِن أحرف التَّوكيد[1]، أو تكون ﴿مِن﴾ بيانًا لـ ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، إذِ الدّابةُ ما يَدِبُّ على الأرض[2]، ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ بيانًا لما في السَّماوات وما في الأرض جميعًا، على أنّ في السَّماوات خَلْقًا لله يَدِبّون فيها كما يَدِبُّ الأناسِيُّ في الأرض[3].

دلالة تنكير وإفراد ﴿دَآبَّةٍ﴾:

الدّلالةُ على أنَّ كُلَّ فرْدٍ مِنَ الدَّواب مقصودٌ بالحُكم

جاء التَّعبيرُ بالمُفرد ﴿دَآبَّةٍ﴾، مع أنَّ المُراد الجمعُ؛ ليكونَ أدلَّ على أنَّ كُلَّ فرْدٍ مِنَ الدَّواب مقصودٌ بالحُكم[4]، فاجْتُزئ بذِكْر الواحدِ مِنَ الدَّواب عن ذِكْر الجميع، فمَعْنَى الكلام: ولله يسجد ما في السَّماوات وما في الأرض، مِنَ الدَّواب والملائكة، كما يُقال: ما أتاني مِن رَجُل، بمعنى: ما أتاني مِنَ الرِّجال[5].

السِّرُّ وراءَ تقديمِ ذِكْرِ (الدَّواب) على (الملائكة):

جمالُ تناسقِ النَّص القرآنيّ في ذِكْر كُلِّ لَفْظٍ مع ما يُناسِبُه

قَدَّم ذِكْرَ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ على ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ حتّى لا يقع الفَصْلُ بين ذِكْر (الأرض)، وذِكْر (الدّابة)، لاتّصالهما في المعنى، أي: ليكونَ السِّياقُ: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾، وأيضًا لأنَّ ذِكْرَ (الملائكة) بعد ذِكْر ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مناسبٌ للسِّياق؛ لأنَّ الكلامَ الذي بعد ذِكْر الملائكة جاء مُتَّصِلًا بموضوع الملائكة: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 170.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 609.
(4) القدّوميّ، التّفسير البياني، ص: 99.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 80.

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، فجاء ذِكر ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مُتّصلًا بما قبلَه، وذِكر ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مُتّصلًا بما بعدَه، ولو عكسنا الأمرَ في غير السِّياق القرآنيّ، بأن ذكرنا ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أوّلًا، و﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ ثانيًا، لانقطعَ السِّياقُ وذهبَ جمالُ النَّص[1].

فائدةُ عطفِ لفظةِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في سياق السُّجود:

تعظيمُ شأنِ الملائكة المكرّمين، والتّنويهُ بفضلِهم خصوصًا بعد عُموم

خَصَّ الملائكةَ بالذِّكر مع كونهم مِن جملة ما في السَّماوات والأرض؛ تشريفًا ورفعًا لشأنهم، وقيل: لخروجهم مِنَ الموصوفين بالدَّبيب، إذ لهم أجنحَةٌ يَطيرون بها[2]، فالملائكةُ عطفٌ على ﴿مَا﴾، وخصَّهم بالذِّكر بعد العموم تنويهًا بفضلهم[3]، فهو مِن قبيل عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إفادةً لعِظَم شأنِ الملائكةِ ﷺ؛ ولأنَّهم أطوعُ الخَلْقِ، وأعبدُهم لله[4].

دلالةُ تخصيص (الدَّواب)، و(الملائكة) بالذِّكر:

التّعريضُ بالمشركين في تأبّيهم عنِ السُّجود لخالقهم

خُصّت الدَّوابُّ بالذِّكر؛ لأنَّها مِن مخلوقات الأرض، ذاتِ الحِسِّ والحركة، وهي دونَ الإنسان منزلةً، وخُصَّت الملائكةُ بالذِّكر كذلك؛ لأنَّها مِن عالَم السَّماوات، وهي أشرفُ مخلوقاتها، وفي هذا قطعٌ لكلِّ حُجَّةٍ للإنسان ألّا يكون في السّاجدين لله؛ فإذا عَدَّ نفسَه مِن عالَم الأرض، فهذه دوابُّ الله كلُّها تسجد لله، فلْيَسْجُد معها، وإذا كان يرى أنَّه فوقَ هذه الدَّوابِّ، فهذه مخلوقاتُ السَّماء، وهذه الملائكةُ أشرفُ مخلوقاتِها وأكرمُها عند الله قد سجدت لله في ولاءٍ وخُشوع[5]، ففي ذِكر أشرف المخلوقات وأقلِّها تعريضٌ بِذَمِّ مَن نزل

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 99.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 81.
(3) الرّسعنيّ، رموز الكنوز: 4/ 37، والدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 312.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 609.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 305.

مِنَ البشر عن مَرتبة الدَّوابّ في كُفران الخالق، وبمَدْح مَن شابه مِنَ البَشر حال الملائكة[1].

دلالة النَّفي بـ ﴿لَا﴾ للفعل المُضارع ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

نفيُ الاستكبار يُشير إلى كمال الخُضوع والخُشوع الّذي ينبغي أن يتحلَّى به المخلوقُ معَ خالقِه ومولاه، ولمّا كانت صيغة المُضارع للاستمرار التَّجدُّدِي، فالمُرادُ استمرارُ النَّفي[2].

استمرارُ نفي الكِبْرِ عن مخلوقات الله الطّائعة، استمرارٌ لخُضوعها وانقيادها

الدّلالة البلاغيَّة للتَّذييل:

في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، خَصَّ ذِكْرَ عدمِ الاستكبار بالملائكة؛ تعريضًا بالكُفار، لأنَّ الملائكة العُلويين النّورانيّين، أصحابَ القُدراتِ الخارقةِ بالنِّسبة لكم أيُّها المشركون، لا يستكبرون عن عبادة الله، وأنتُم البشرُ الضُّعفاءُ تستكبرون[3].

التَّأكيدُ على التَّعريض بذَمِّ المشركين في تَكَبُّرهم عن عبادة ربّ العالمين

فإذا كان أعلى الخلائقِ وأعلمُهم – وهم الملائكة – يسجدون لله، ويَسجُد له أشَدُّ الخَلْق وأصلبه، وهو الجبال والسَّماوات والأرض، ويسجد له ويخضع أسْفَهُ الخَلْقِ وأجهله، وهو الدَّوابّ وغيرُها، وأنتُم أيّها المشركون أبيتُم السُّجودَ له والخضوع، واستكبرتم عن عبادته، فهؤلاء الّذين ذكرَهم يسجدون، وفي ذلك إخبار عن سَفَهِ أولئك في إبائهم السّجودَ له والخضوعَ[4].

دلالةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ الفعل ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

يَحْتَمِل مُتَعَلَّقُ الفعلِ وجهين؛ أحدهما: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنِ السُّجود لله تعالى، والثّاني: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنِ الخضوع لقُدرة الله وعِزَّته[5]، وعلى كِلا الاحتمالين، فمَدارُ الأمر على الخضوع

دورانُ الأمرِ على الانقياد والطّاعةِ لربّ العباد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 171.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 396.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 99.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 6/ 513.
(5) الماورديّ، النُّكت والعيون: 3/ 191.

والانقياد والطّاعةِ لِرَبِّ العباد، الّذي يَدور عليه فلَكُ المخلوقات، والّذي ينبغي أن يتحلَّى به العبد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستِكبار والتَّكَبُّر:

الاستكبارُ الاستعلاءُ في الأرضِ وإنكارُ الحقِّ، والتَّكبُّرُ التَّعظُّم والتَّطاول غروراً وزُهوًّا

التَّكَبُّر والاستِكبار مِن أصلٍ واحدٍ ومَعدنٍ واحدٍ، وبينهما فروقٌ يسيرة؛ لأنَّ الاختلافَ في المَبْنَى يدلُّ على اخْتِلافِ المَعْنى غالبًا.

أمّا الاستكبارُ: فهو الاستعلاءُ في الأرضِ، وإنكارُ الحَقِّ والامتناعُ عن قَبوله مُعاندةً وتَكَبُّرًا، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: 60]، فالمُستَكْبِرُ يَعْتَقِدُ أنَّ نَفْسَهُ كَبيرَةٌ تَكَلُّفًا واسْتِشْعارًا في النَّفْس، ولا يَبْلُغُ حَقيقتَه، وهوَ في الوقتِ نَفْسِه يَطلبُ الكِبَرَ، وهو ليسَ لهُ حَقٌّ بِهِ؛ ولِهذا لم يَرِدِ الاسْتِكبارُ في جَميعِ القُرْآنِ إلّا على الذَّمِّ؛ نحو: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: 7].

أمّا التَّكبُّرُ: فهو التَّعَظُّم؛ قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146] أي: أنهم يَرَوْنَ أنهم أفضلُ الخَلْق، وأنَّ لهم مِنَ الحقِّ ما ليس لغيرهم، وهو على هذا المعنى مذمومٌ، ويكون ممدوحًا إذا وردَ وصفًا لله تعالى؛ نحو: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]؛ فهو مَحْمودٌ لأنه بمعنى التَّعَظُّم عمّا لا يليق به من صفات الحَدَث والذَّمّ[1]، فهو الّذي أعلى نَفْسَه وعَظَّمَها، وهذا ممدوحٌ في صِفاتِ اللهِ، مذمومٌ في صِفاتِ الخَلْقِ؛ لأنَّ الخَلْقَ لا يَخْلونَ عن نقيصةٍ، فلا يليقُ بهم إعظامُهم أنفُسَهم، وإعلاؤُهم إيّاهم، واللهُ تعالى لا يجوزُ عليه نقصٌ، فيَصِحُّ مَدْحُه لنَفْسِه وإعظامُه[2].

(1) الطَّحاويّ، شرح مشكل الآثار: 14/ 189، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 482.
(2) السَّمعانيّ، تفسير السَّمعانيّ: 5/ 410.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»